حافظ الشيرازي شاعر الحكمة صلة وصل مع شعره

د. محمد علي شمس الدين*

مدخل

المصالحة بين الزمان والحرية

"موسيقى رؤية قلبك داخل صدرك الشفّاف مثل زمردة في الماء"

في هذا المقطع من شعر حافظ الشيرازي، دلالة على أصل الرؤيا لديه، فالأصل هو "القلب" والكشف عنه في المكتن الشفّاف "الصدر". بل هنا أساس الحكمة في كلمات هذا الشاعر الإسلامي العظيم، الذي يُعدّ في الشعر الفارسي خاصةً، والشعر الانساني عامةً، من الأكثر صفاءً ونفاذًا في النفس البشرية.

إنّ فتح النوافذ بين إنسان وآخر، بمعزل عن لونه وعمره، لغته ومعتقده، من خلال هذا النصّ، ربّما أعطى إشارة مبكرة، في الزمان التاريخي لما سُمّي في العصور الحديثة "حوار الحضارات"، أو لشرعة حقوق الإنسان التي كُرست في الأمم المتحدة بعد الحروب الكونية والنزاعات المريرة. فإنّ روح أشعار حافظ الشيرازي وجوهرها يحتملان مثل هذا التأويل.

لقد جاء شعر حافظ زبدةَ شعر الحكمة بعد أشعار كل من الرودكي وجلال الدين الرومي (مولانا جلال الدين)، الذي كان في المثنوي خاصة، صوفيًّا تعليميًّا، وسعدي الشيرازي، وسواهم ممّن أسّسوا للمعاني العرفانية أو للنهج العرفاني في الشعر الفارسي... مع ملاحظة تمتع هذا الشعر بالبساطة والعمق في وقت واحد،

---

* شاعر وأديب

وتناوله موضوعات تتعلق بالحب والمرأة والخمر والشباب، في سديم من عرفانية دينية بيضاء، كانت تتحرك في شعره خارج منطقة الخوف الإلهي، بل تحت مظلّة "الرحمة والغفران" ... فصورة الإله في غزلياته هي صورة الرحمن الرحيم أكثر ممّا هي صورة الجبّار المُنتقم.

وثمّة من يُعدَّ حافظ الشيرازي أقرب للعرفاني منه للشاعر، من حيث أنّ العرفانية أو العرفان مقام أعلى من مقام الشعر.

لقد أنشد جلال الدين الرومي شعره انشادًا كان الناي أساس صنيعه الشعري، لكنّ حافظًا هو شاعر حكمة بامتياز، وللحكمة هنا معنى يتجاوز ظاهر الحلال والحرام في الشريعة، ويتجاوز أيضًا أحكام العقل وترتيباته ....

بأي نوع من الحكمة والمعرفة اهتمّ العرفانيون؟ نسأل ونجيب: لقد أسسوا معانيهم على أصل الحكمة في القرآن الكريم "سورة الكهف" و"حديث قدسي"، فهناك في هذه السورة ١٥ آية يختلف فيها نوع الحكمة كليًّا عمّا في الذكر الحكيم، هنا نجد حوادث وظواهر تتجاوز في كنهها ترتيبات العقل وظواهره، وتغوص الى أصل الحكمة. إنّ هناك ما يمكن تسميته بـ"موطن الأسرار" في الكون وفي القلب البشري معًا.

ولعل بيت الشعر التالي المحتمل للتأويل للخمرة يقرّبنا من هذا المعنى:

فلما شربناها ودبّ دبيبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفي

فأشعار حافظ الشيرازي تطلع من "موطن الأسرار" وتصبّ فيه ولا تُنال إلّا بالمكاشفة والذوق... ففي "موطن الأسرار" الحب، العمق، الشمولية وتماهي التناقضات، وانصهارها في مرجل الحب "لقد استطاع حافظ، كما فعل جلال الدين الرومي في "المثنوي" وفريد الدين العطّار النيسابوري في "منطق الطير"، وعمر بن الفارض، أن يصالح بين عمق النظرة الإسلاميّة للشعر وشموليتها المتمثلة بالزمان، وأن يجعل من الشعر الديني الإسلامي شعرًا إنسانيًا اهتمّ به "غوته" شاعر الألمان، و"فيكتور هوغو" الشاعر الفرنسي و"طاغور" شاعر الهند، فضلًا عن اهتمام العالم بأكمله به شرقًا وغربًا، وذلك من خلال وحدة الآلهة المُعبَّر عنها بعبارة "لا إله الّا الله" ووحدة

الوجود، فتفترش الأمكنة والأزمنة والكائنات والاحوال والمظاهر على اختلافها، من دون استثناء ... فـ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ١١٥].

فهل يستستثنى الوَثَن أو بيت المجوس ونارهم أو الحانة من ذلك؟

إنه سؤال وهو مجلى التوحيد العرفاني لا مجال فيه لاثنينية ولا ثنوية مجوسية (اهريمن / اهور مزدا) أو دينية أو فلسفية (الله / الشيطان، بيت الله / بيت الشيطان، المسجد / الحانة ... اللاهوت / الناسوت ... إلخ) ... فكلّه لاهوت ويغدو كلّ مكان أو مقام أو اسم أو شيء في الوجود مشمولًا بوحدانيته، مثلما تغدو الخمرة وبيت النار والحانة والوَثَن غير خارجة عن هذه الوحدانية.

وهذا المدخل ضروري للشعر العرفاني بشكل عام، ولفهم أشعار حافظ الشيرازي بشكل خاص، فهي أشعار تتعدّى بمراميها الظاهر، وتتعامل مع الرمز اللامحدود وتاليًا مع الحرية.

إلى جانب هذا الجاذب الروحي الذي شدّ اهتمامي يحسن بي أن أذكر جانبين آخرين هما موقع حافظ الشيرازي في الثقافة الإيرانية القديمة والمعاصرة، وجاذب ذاتي صنعته المصادفة.

فلحافظ موقع بل مقام في الثقافة الشعبية اليومية للإيرانيين، فبه قد تأثّر جميع من كتب شعرًا عرفانيًّا في تلك البلاد، من سعدي والعطّار النيسابوري وصولًا للإمام الخميني. ويُطبع ديوانه طبعات كثيرة مُمَيزة من حيث إخراجها، وخطّها المُنّمَق الذي اشتهر به الخط الفارسي، وزخرفها ... بل لاحظت أنّ إخراج ديوانه في الشكل، مشابه تمامًا لإخراج آيات وسور القرآن الكريم. والإيرانيون على كلّ حال يستفتحون بديوان حافظ، كما يستفتحون بالذكر الحكيم، معنى ذلك أنّ للشاعر مقامًا مقدّسًا في ضمير الإيرانيين.

أمّا الجانب الذاتي الذي صنعته المصادفة، فيتمثّل في وحدة اسمَينا، فهد شمس الدين محمد، وأنا محمد شمس الدين.

وقد لُقِب بحافظ بسبب حفظه للقرآن الكريم، وهو عمل عجّانًا قبل أن يعجن الشعر.

وأنا اكتفيت بعجن الشعروحده، كم أننا نتشابه في استقلال كلّ منّا، مع تفاوت الأمكنة، والأزمنة، والأحوال، عن السلطة السياسية الآمرة مهما كان اسمها، لسببين: الشغف بالحريّة والاعتداد بالشعر.

نُسب حافظ الشيرازي الى مسقط رأسه ومدينته شيراز في بلاد فارس، التي يُنسَب إليها سعدي أيضًا وأخرون، كما لُقب بـ" لسان الغيب وترجمان الأسرار"، منحه هذا اللقب الشاعر الفارسي "الجامي" ...

وإن شعري على الإجمال إنما ينطلق من نقطة ما، في الغيب كائنة بين القلب والعالم، فأنا شاعر ديني وميتافيزيك، وأحسب أن الشعر "جرح من أقدم جروح الغيب"، ثم إنّه لكل امرئ من اسمه نصيب كما أُثِرعن الرسول الاعظم.

هذه الأسباب وسواها ممّا لا أستطيع ذكره، وبعضها يتعلّق بالأحلام والرؤيا جعلتني أهتمّ بحافظ الشيرازي، أما هوبتعريفٍ موجزفأبرأ شعراء إيران العرفانيّين، من حين ظهوره في القرن الثامن للهجرة، الرابع عشر للميلاد الى يومنا هذا (٧٢٣-٧٩٢هـ/ ١٣١٥-١٣٩٠م))بالتقريب).

كتب أشعاره الرقيقة في الحب والخمرة والطبيعة بنبض عرفاني، في زمن وحشية التتار والمغول وزحفهم الكاسح على العالم الإسلامي، فكان ترجمان الضميرالإسلامي الإنساني العميق اللطيف في مواجهة قسوة التتار ووحشيّتهم. وهوفي أيامنا هذه، وبعد مرور حوالى سبعة قرون على ولادته، ما زال حاضرًا في شعره وواجب الحضورإسلاميًّا في مواجهة التترية المعاصرة المتمثّلة بالوجه البشع للثقافة الأميركو-صهيونية وأقنعتها المتعدّدة من إسلامية وعربية وعالمية، وما تمارسه على الشعوب والأفراد من قهروإرهاب.

حافظ الشيرازي بين الواقع والمجاز:

لقد اختُلِف في حافظ الشيرازي وفي شعره في أثناء حياته وعند مماته .... حتى إنّ الفقهاء تساءلوا أمام جثمانه، أين يُدفَن؟ أفي مدافن الأولياء والأخيار، أم في مدافن اللاأخيار؟ وهل خمرته وحانته ووثنية أشعاره ومجوسيته وبيت النار وشيخ المجوس .. التي يحتشد بها شعره، هي حسيّة حقيقية، أم هي رمزية ومجاز ..

وهل يتصدّى بها الظاهر أم الباطن؟ وتقول الحكاية حول الاختلاف في أمره ودفنه، ولعلها بدورها رمزية كشعره. إنّ الفقهاء أوقفوا الجنازة في عرض الطريق، لينتهوا إلى حلّ في شأن حافظ، وإنهم للخروج من حيرتهم استقرأوا أحد أبياته (كيفما اتفق) ليفهموا مراميه، ويعملوا تبعًا لما يُمليه، فوقعوا على قوله (وكأنه يخاطبهم من وراء الغيب): أيّها المختلفون في جنازتي اعلموا أنّي غرقت في الخطايا، إنّما طريقي إلى الجنة، فصحّ لهم صلاحه ودُفن في مقابر الأخيار. والحال أنّ قبره الآن، ومن مدّة طويلة، يشكل مزارًا شعبيًّا، ويُحاط بدائرة من القداسة، شأنه شأن الأولياء وأصحاب الكرامات.... كما أنّ تمثاله النصفي موجود في حديقة الشعب في طهران "بارك ملّي" مع تماثيل عظماء الشعراء والعلماء والفلاسفة الايرانيين.. ولعلّ في هذه الحكاية المرويّة عن الاستفتاء بشعر حافظ في يوم دفنه، الأصل الشعبي المستمر لغاية هذه الأيام، للاعتقاد بفأل الرجوع لاشعاره، وهذه الاشعار موجودة تقريبًا في كل بيت إيرانيّ.

إننا لا نستطيع أن نبعد عن هذه الأشعار روائح مكانها وزمانها وتاريخ صاحبها ولغته، نعني بذلك تاريخ إيران لما قبل الإسلام، فضلًا عن هويتها الدينيّة الإسلامية.

إنّ شعر حافظ الشيرازي الذي لم يُجمَع الّا بعد مرور عشرين عامًا على وفاته، هو شعر معان ومفربات إسلامية وقرآنية، وتتخلّله أحيانا بعض مفردات العربية التي كان يُحسنها، حيث ترد عبارات العبادة والتوحيد والصلاة والزكاة والصيام والطواف والزهد والإنابة والرسول والصحابة ..... إلخ، فضلًا عن الرموز المستلّة من القصص القرآني، كقصة يوسف وسليمان وموسى وعيسى ومحمد "ص"، وحكايات الأنبياء والمرسلين والطور وسيناء وما إلى ذلك.

إلّا أنّ هذا الشعر في الوقت نفسه، هو شعر المكان الفارسي والتاريخ الفارسي واللغة الفارسية بامتياز، فقد دخلت رموز فارسية تاريخية من العصر الساساني الوثني بشكل خاص. فوردت أسماء جمشيد وتختهِ الشهير، والكأس التي قيل إنّه كان يشرب منها الشراب، ويتملّى وهو ينظر الى داخلها أحوال العالم فيها أو من خلالها "جام جم" أي جام جمشيد، او كأس جمشيد .... كما يرد ذكر المجوس

وبيت المجوس وشيخ المجوس ونارهم وأوثانهم وعباداتهم وأسماء العشاق الفرس التاريخيين مثل "شيرين وفرهاد" على غرار ليلى وقيس (المجنون)، فضلًا عن فخامة وأبّهة هذا التاريخ السابق على الإسلام. ولا ننسى طبيعة النهضة الإيرانية فقد انعكست بجمالها واعتدالها وورودها وبلابلها وحسناواتها، وما كان فيها من متعة وأنس بالوجود وشرب الخمرة وأماكنها وحاناتها على أشعار حافظ. وقد أشار "أبو الطيب المتنبي" إلى هذا الجمال في الطبيعة بقوله في شعب بوّان:

"يَقولُ بِشِعبِ بَوّانٍ حِصاني أَعَن هَذا يُسارُ إِلى الطِعانِ
مَلاعِبُ جِنَّةٍ لَو سارَ فيها سُلَيمانٌ لَسارَ بِتَرجُمانِ...
أَبوكُم آدَمٌ سَنَّ المَعاصي وَعَلَّمَكُم مُفارَقَةَ الجِنانِ..."

من هذا المزيج الغريب الخاص، التاريخي والطبيعي والاعتقادي، جُبِل شعر حافظ الشيرازي جبلته اللطيفة. فهو شعر تعبّد إسلامي بأدوات من تاريخ وثني ومن غناء وطقوس خمرة وشراب، وبلغة وموسيقى رزينة عابرتين للعصور... إلّا أنّ روحانيته الإسلامية وجوهر الحبّ الذي ينطوي عليه، يطهّران ما يلوح للناظر من شوائب الظاهر، من أجل ذلك سُمّي هذا الشعر شعرًا عرفانيًّا، ولم يُنبَذ أو تلحقه الإدانة في بلادٍ دينُ دولتها هو الإسلام.

ملاحظات حول القصائد التي قمنا بتعريبها:

اما قصائد حافظ التي قمنا بتعريبها، وعددها خمس وسبعون قصيدة مختارة، ظهرت في الطبعة الأولى الصادرة في العام ٢٠٠٥ عن اتحاد الكتّاب اللبنانيين بعنوان "شيرازيات"، فقد أضفنا إليها تسع غزليات أخرى في الطبعة الثانية لشيرازيات، الصادرة عن دار الأمير في العام ٢٠١٧، مع مقدمة صغيرة للطبعة الثانية المزيدة. لقد استندنا في عملنا إلى جوهر المعنى في أشعار حافظ، وهو جوهر مأخوذ من غزلياته في الفارسية، وترجماتها إلى العربية، نخص بالذكر منها ما قام به الدكتور إبراهيم أمين الشواربي في ترجمته لديوان حافظ الشيرازي في طبعته الصادرة للمرة الثانية في العام ١٩٩٩ عن "مهراندیش للنشر في طهران" وكانت الطبعة الأولى صدرت في العام ١٩٤٤ في مصر مع مقدمة جليلة للدكتور طه حسين. إلّا أنّ من يقرأ أشعار الشاعر

بلغتها الأم وفي ترجماتها للعربية، بما في ذلك ترجمة الدكتور الشواربي، سيدرك تمام الإدراك أنّ ما قمنا به هو "تعريب" لبعض غزليات حافظ وليس ترجمة لها، والفرق بين التعريب والترجمة فرق شاسع في نظرنا ... فقد تصرّفنا تصرّفًا ملحوظًا في التفاصيل، وسكبنا جوهر المعنى في إناء العربية بكلّ ما فيها من بلاغة وأصول وخصوصية لغوية وتطوّر، كما أضفنا إضافات شتّى من تضمين لأبيات شعرية عربية غير موجودة في الأصل الفارسي، وأوجدنا عناوين للقصائد وهي في الأصل بلا عناوين، بل وردت القصائد بعنوان واحد وهو "غزل".

أضيف ما هو أخطر من ذلك .. وهو أننا كتبنا هذه القصائد بإحساس ذاتي شعري خاصٍ غير مفصول عن وجدان حافظ الشيرازي، لكنه يخصّني بقوة بمقدار ما يخصّ حافظًا، فانتابني من هذه المشاركة الوجدانية إحساس بأنني "ولدت مرّتين".. إلّا أنني حافظت على الجوهر ولم أحِد عنه، وآثرت أن أُسّمي المجموعة بكاملها "شيرازيات"، تذكيرًا بحافظ الشيرازي، وهذه القصائد المقرّبة تُهدى اليه.

النتيجة:

إنه صنيع خطير وممتع. وأعترف بخيانة كانت ضرورية لكتابة شعر على الشعر ونصوص جديدة على نصوص قديمة لحافظ. ومن يعرف اللغتين الفارسية والعربية ويقرأ قصائد كل من حافظ وقصائدي يدرك مقاصد ما أقول.

مجمل القصائد وعددها ٥٧٣ منظومة غزل، تركها الشاعر (تبعًا لنسخة الشارح البوسنوي "سودي" بالتركية) نشرها في القرن السابع عشر الميلادي، وترجمها إلى العربية مباشرة عن الفارسية إبراهيم أمين الشواربي (كما سبقت الإشارة إليه).

عاش حافظ الشيرازي في القرن الثامن للهجرة، الرابع عشر للميلاد، وشهد الاجتياح المغولي لبلاد الإسلام، ولد في شيراز ودفن فيها وقبره في الحافظية، معروف يرفعه أهل شيراز ومعظم الإيرانيين اليوم إلى مرتبة عالية في القداسة. يستفتحون بشعره أيامهم ويحيطون قبره بالكرامة والتبرّك، والأرجح أنه كان على المذهب السّني، إذ إن التشّيع لم يكن سائدًا في ايران. إلّا أنّه أقرب للزهد الصوفي منه للتديّن، كما أنّ هناك بصمات من عمر الخيام السابق عليه على شعره كناحية

الخمرة والحبيب والتمتع بجمال الطبيعة.

لكنّ روحه ليست عدمية كما هي حال الخيام، وليس عنده ألم العقل الممضّ الذي عاش منه أعمى المعرّة.

ولعل تصوفه من الرشاقة واللطف بحيث استغوى الشباب في عصره وفي جميع العصور. وأغوى بشعره الغربيين (غوته الألماني)، كما أغوى الشرقيين (الفرس والأتراك خاصة). أمّا أثره العربي فظلَّ خفيفًا حتى أيامنا هذه. وأهمية شعره تأتي من أنّ هذا الشعر قائم على صوفية الحبّ الذي يجمع ولا يُفرّق أو يُدّمر، وعلى التمتع بملذّات الوجود المرموز إليها بالخمرة والروض للعالم والخدّ الجميل والقد النحيل للمرأة.

كان حافظ يدرك مقدار فتنته للناس وهو في سلاحه الصوفي الهادئ، عاش بعيدًا من توتر الصراعات الدينية والمذهبية في زمنه. وعن صراعات الحكّام والورثة على السلطة، يصفهم بأنهم أسرة نكدة الحال، مفكّكة الأوصال (ويقصد آل المظفر) الذين قضى عليهم تيمورلنك في غارته الثانية على شيراز.

شعر حافظ بسيط، لكنه خطير، وشخصه كذلك مع ما روي من حوادث وحكايات. يدّعي أنه رأى علي ابن ابي طالب "ع" في المنام، فقدّم له الزاد السماوي، لكنه يُضمّن في شعره أبياتًا خمرية وغزلية ليزيد بن معاوية في قصيدة "أدر كأسا وناولها ألّا أيّها الساقي".

وهو شاعر إشكالي كتب غزله الكثير في المنطقة الرماديّة بين المجوسية والإسلام، ففي شعره تكثر مفردات الإرث الساساني القديم السابق على الإسلام كبيت النار وشيخ المجوس وجام جم أو جام جمشيد، كما ينعقد هذا الشعر على الخمرة والصنم، لذا اتُّهم بالزندقة، ولكنّه أيضًا يكنز فيه مفردات قرآنية من قصص الأنبياء والزهد والتوبة وذكر الله .. والجمع بين هذه العناصر في الشعر يولّد كيمياء جديدة وغريبة، فأنت ترى الإرث الساساني الفارسي القديم وجمال ورود شيراز وجمال نسائها، كلّ ذلك مجموعًا إلى جانب التوبة والعشق والرضا والقناعة، وقصة يوسف والخضر وموسى وسائر قصص الأنبياء... فمن هو معشوق حافظ يا ترى؟ وماهي

خمرته؟ أهي الحقيقة الحسّية أم المجاز المقصود به الله؟ أم كان له من هذا نصيب ومن هذا نصيب آخر؟ فحيّر منه العقول، وقد حسم هذا الشك بقوله: "لقد غرقت بالإثم لكن طريقي إلى الجنّة".

قصائد غزل حافظ الشيرازي

ألف) غزل التيه "إلى سيد المقاومة"

يمشي على الموت تيّاها كأنّ ... من الآلهة سرًّا ليس يخفيه
يمشي الهوينا وقتلاه تمجّده ... كأنما كلّ ما يردِيه يحييه
يعلو على الغيم أحيانا وأبصرهُ ... يدنو ليصبح أدنى من معانيه
أعطيته كلّ ما اوتيت من نعم ... وما ندمت، فألقاني على التيه

ب) لو بائع الراح ....

لو بائع الراح بالقسطاس وزّعها ... لكان أقرب من غفران مولاه
عدل الشراب أساس في شريعتنا ... فمن تملكه تُمحى خطاياه
إنّي ظمئت فمن يأتي بساقية ... من الشريعة يرويني بها الله
يا مسمعي صوت من أهدى ويقتلني ... كلٌّ يغنّي على بلواه "ليلاه"
قل ما تشاء ولكن سمّ جارحة ... من الطيور وذكّرها ببلواه
"إنّ العيونَ التي في طرفها حَورٌ" ... قتلنه .... ثم لا يحيين قتلاه

ج) رأسي يدور

رأسي يدور على ما رقّ من جسدي ... حتى كأن به مسّ الأساطير
أو أنني كرة في كفّ حاملها .... ألقى بها الله في أرض المقادير
لا تشرب الراح من دنّ بلا شغف ... ولا تسلّم عليه غير مخمورِ....
فالله أودع في ما كان من خبرٍ ... سرّ الخليقة في كأس من النور
حتّى إذا مسّها موسى على عجل ... والبرق خاطبه من جانب الطور
وصبّ عيسى على الموتى سلافتها ... كأنّما صبّ فيها نفخة الصورِ
جاءت إلينا على ساقين حاملةً ... ماء الحياة بأحشاء القواريرِ